

الفصل الرابع

فقهاء المالكية والعيادة الاجتماعية في بلاد السودان الغربي

- ١- الجذور الإثنية لفقهاء المالكية .
- ٢- مكانة المالكية الاجتماعية بين طبقات المجتمع .
- ٣- دور فقهاء المالكية تجاه العادات والتقاليد الاجتماعية ذات الأصول الوثنية.
- ٤- فقهاء المالكية والاحتفالات الدينية .

obbeikandi.com

مثل الفقهاء الطبقة الدينية المثقفة في المجتمع السوداني ، ومن ثم فقد كانوا موضع نظر الحكام والعامّة على السواء ، يسترشدون برأيهم ويتظنون مواقفهم الإصلاحية . كما أنه ألقى علي عاتقهم عبء الإصلاحات الاجتماعية ومحاولة الحفاظ على قيم المجتمع المسلم وظلت أعينُ الناس حكاما ومحكومين معقودة عليهم .

ولذا لم يأل فقهاء السودان الغربي جهدا في سبيل إصلاح المجتمع وتقويمه والخروج به من بعض المفاصد التي كانت تخالف الشريعة الإسلامية . خاصة وأنهم اندمجوا في مجتمعاتهم وعاشوا أجواءه ، فسارعوا إلى القضاء على المفاصد والأعراف الوثنية ، وإن كانت بعض صيحاتهم قد ذهبت سدى في بعض الأحيان ، لكن جهودهم الإصلاحية كانت مثمرة في معظم الأحيان .

وأول ما ستحدث عنه في هذا الفصل هو الجذور الإثنية لهؤلاء الفقهاء الذين أثروا في مجتمع السودان الغربي .

أولاً الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي :

يُعدُّ البحثُ عن الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي من الضروريات المهمة التي يجب بحثها لإمطة اللثام عن الجذور الأولى لأصل هؤلاء الفقهاء . وتعد محاولة رصد الجذور الإثنية للفقهاء المالكية أمراً صعباً بسبب غياب المادة المصدرية والباحثون المختصون في تاريخ تلك المنطقة يجمعون على أن تاريخها خلال العصر الإسلامي هو قبل كل شيء قضية مصادر . ذلك أن قلة وندرة المادة الإخبارية المتوفرة، فضلاً عن فقر مضامينها يمثل عقبة أرهقت الباحثين ودفعت بالكثيرين منهم إلى الاستئناس والاستشهاد دون حرج بمصادر متأخرة جداً، ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة / الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد ،

والاعتماد علي الرواية الشفوية ، أكثر من ذلك فإنه حتى بالنسبة للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد الذي يوافق جل معلوماتنا عن المنطقة مع كتابات كل من ابن بطوطة والعمري وابن خلدون فإننا نستطيع بالكاد أن نجيب من خلالها عن بعض الأسئلة التاريخية ذات الطابع ألدثني أو الوقائعي، مثل تحديد فترة حكم ملك أو ضبط سنة حجه أو رصد بعض أعماله وغزواته إضافة إلى بعض الظواهر الاجتماعية .

هذا وقد تعددت الأصول الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي إلى عنصر سوداني وبربري وعربي ، وستحدث عنها فيما يلي .

الجدور الإثنية لفقهاء المالكية في زمن دولة مالي :

يعد بديها القول بتعدد الجدور الإثنية والقبلية لفقهاء المالكية ببلاد السودان الغربي التي تعددت بها الأجناس والأعراق البشرية سواء تلك التي قطتها منذ البداية ، أو تلك العناصر التي اضطرت إلى الهجرة إليها نتيجة دوافع سياسية عسكرية أو رغبت في الوفود عليها نتيجة ثرائها وتعدد مواردها وأهمية موقعها ومن هذه العناصر: العنصر السوداني .

(١) فقهاء المالكية ذوو الأصول السودانية في دولة مالي :

كان في بلاد السودان زمن دولة مالي فقهاء مالكيون ذوو أصول سودانية ، ولكنهم كانوا قليلي العدد ، منهم الفقيه القاضي الإمام كاتب موسى^(١) ، الذي كان من أئمة المسجد الجامع الكبير المشهورين في تنبكت المشهورين وذكر السعدي أن جميع أئمة هذا الجامع من السودانين ، وأن آخر الأئمة من السود ، وهو من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لطلب العلم بأمر من السلطان منسا موسى ، فلما

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٧ .

انتهى من دراسته بفاس عاد إلى بلاده مالي، وعاد معه الفقيه عبد الله البلبالي، وخلف هذا الفقيه القاضي كاتب موسى في الإمامة، وهو أول رجل أبيض صلى بالناس إماماً بالمسجد الجامع الكبير وكان جميع أئمته منذ تأسيسه من السود^(١).

ويلاحظ أن هناك فقهاء مالكية من أصل الونكري^(٢) وكانوا كثيرين ولهم دور بارز في نشر الإسلام في إحدى إمارات الهوسا وهي إمارة كانو^(٣) وكان هذا في القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي في عهد الساركن ياجي (٧٥٠-٧٨٧هـ / ١٣٤٩-١٣٨٥م) حيث جاء وفد إلى كانو من الونقارة قادما من دولة مالي الإسلامية لدعوة أهل كانو إلى الإسلام^(٤).

(٢) فقهاء المالكية فو الأصول البربرية في دولة مالي :

كانت العناصر البربرية من العناصر السكانية التي انحدر منها بعض فقهاء المالكية ببلاد السودان الغربي، إذ لا تعوزنا القرائن الدالة على تعاقب الوفود المغربية المتلاحقة على بلاد السودان الغربي سواء من البربر أو العرب.

(١) كعت: مصدر سابق، ص ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، السعدي: مصدر سابق، ص ٥٧.

(٢) هو مكان مشهور بكثرة الذهب وجودته منذ الأزمان القديمة، وهو على الضفة الغربية لنهر السنغال، وكان تحت حكم دولة مالي عندما جاء هذا الوفد إلى كانو، أنظر بوفل: الممالك الإسلامية في غربي إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء، ترجمة زاهر رياض، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٢٤٧، ٢٥٠، مهدي رزق الله: حركة التجارة، ص ٣٩١.

(٣) مدينة كانو من أهم ولايات الهوسا، ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، المرجع السابق، ص ٣٨٩. وللمزيد أنظر، حسين مراد: دولة كانو الإسلامية، تطورها السياسي والحضاري حتى نهاية القرن ٩هـ / ١٥م، بحث في مجلة الدراسات الإفريقية، عدد رقم ٤٧، عام ١٩٩٧.

(٤) السعدي: مصدر سابق، ص ١٩.

فقد ضمت الصحراء الفاصلة بين السودان والشمال الإفريقي أكبر تجمعات بربرية مثل لواتة، وزناتة، و صنهاجة وما تبعها من جماعات وعشائر متعددة، بسبب التجارة والطرق التجارية، وقد كان لصنهاجة الدور الأهم في السيطرة على الطرق التجارية الغربية في الصحراء فصار طبيعياً ان تكون مدن تلك الصحراء مسكونة ببطون تلك القبيلة مثل لمطة و جزولة وجدالة ومداسة وبني وارث^(١) وغيرها، والتي كان لها حضور واضح في القرى والمدن المتاخمة لبلاد السودان مثل صنغانة وإدرار و اودغشت و بوغرات^(٢).

ثم ما لبثت هذه القبائل البربرية أن توغلت جنوباً في بلاد السودان نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وحياتية، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: "أبعدوا عن المجالات هناك منذ دهور.. فأصحروا في الأرياف ... ومنهم من قطع الرمال إلى بلاد القفر.. فيما يلي كوكو من السودان"^(٣).

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية بعض أسماء فقهاء مالكية السودان الغربي من ذوى الأصول المغربية البربرية والعربية خاصة في دولة مالي، فقد ورد على بلاد السودان الغربي فقهاء من بلاد المغرب كونوا جاليات ما لبث أن كتب لها الاستقرار بعد ذلك. ومن المرجح أن الفقهاء والقضاة ورجال الأدب قد قدموا إلى السودان الغربي بهدف التجارة، لأنه من الصعب التسليم بأنهم كانوا يقتصرون في نشاطهم على الوظائف الرسمية. فمهما كانت الرواتب التي تدرّها عليهم تلك الوظائف، فإنهم بلا شك كانوا يمثلون إلى ممارسة الأعمال التجارية الرابحة التي تفسر وحدها عبورهم للصحراء والإقامة في بلاد بعيدة مثل السودان. فقد كانوا وكلاء للشركات الموجودة بالمغرب، أو وسطاء بين المغاربة والسودانيين، حيث كان الجمع بين التجارة والعلم هو

(١) البكري: المسالك والممالك، ج١، ص ٢٥٠.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٣٥٩، العمري: مصدر سابق، ج٤، ص ٦٠.

(٣) ابن خلدون: مصدر سابق، ص ١٧٨٧، ١٧٨٨.

إحدى خصائص الحضارة الإسلامية في السودان الغربي في شتى عصورها^(١) بيد أن فريقاً من هؤلاء التجار الفقهاء قد فضل الاستقرار في بلاد السودان ، يدل علي هذا رواية العمري التي تحدث فيها عن قدوم بعض الفقهاء المالكية إلى بلاد السودان كتجار ثم ما لبثوا إن استوطنوا هذه البلاد^(٢).

وكان من أهم العوامل وراء استقرارهم هو حسن المعاملة التي لاقوها من قبل حكام هذه البلاد، فهذا ابن بطوطة يؤكد أن إمبراطور مالي منسا موسى "كان يحب البيضان ، ويحسن إليهم" و"هو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال^(٣) وأعطى للمرك ابن ققوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد"^(٤) وقد استمرت هذه السياسة سارية المفعول خلال القرنين التاليين حسب شهادة الحسن الوزان^(٥).

كذلك تقرب الفقهاء المغاربة التجار من الدوائر الحاكمة عن طريق الزواج والارتباطات العائلية ، فقد كان كبير جماعة البيضان محمد بن الفقيه الجزولي متزوجاً ببنت عم السلطان^(٦) منسا سليمان ، ونجد لاحقاً أن ملك تنبكت^(٧) زوج اثنتين من بناته لأخوين تاجرين مغربيين لفقهما وعلمهما وغناهما^(٨).

(١) A. El Alaoui, *Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du milieu du XIV^e s.)*, Thèse de 3^{ème} cycle, Bordeaux, ١٩٨٣, pp. ١٠٨-١٠٩.

(٢) العمري : مسالك الإبرار ، ج٤ ، ص٥٩ ، ٦٠ ، حيث يقول إن أبا عثمان سعيد الدكالي «سكن مدينة بيتي (عاصمة إمبراطورية مالي) خمساً وثلاثين سنة.

(٣) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٦٧٢.

(٤) المصدر السابق والصفحة .

(٥) الحسن الوزان : وصف إفريقيا ، ص٥٣٩ ، بمدينة مالي "يوجد غدد كثير من الصناع والتجار المقيمين والطارئين الذين يعيهم الملك عناية أكثر من غيرهم".

(٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٦٥.

(٧) لم يكن هناك ملك في تنبكت بل نائب عن إمبراطور جاو ، والذي يلقب بتبكت كوي ، أما الذي

وكان حرص السلطة في السودان الغربي على تعاليم الإسلام ونشرها بين أفراد الرعية وراء استقطاب ثلة من فقهاء المالكية المغاربة إلى بلادهم، فقد اهتم سلاطين مالي بنشر العلوم والثقافة عن طريق استقدام عدد كبير من العلماء إلى بلادهم فامتلات بلادهم بفقهاء المالكية من السود والبيض على السواء . وقد ترك لنا ابن بطوطة شهادة حية عن مدى تغلغل الإسلام في إمبراطورية مالي^(١). ويبرز العمري من جانبه تدين منسا موسى وإسهامه في نشر الإسلام ببلادته. فعند حديثه عن منسا سليمان، يقول إن أخاه منسا موسى بنى المساجد والجوامع والمآذن وأقام ببلده الجمع والجماعات والأذان، و"جلب إلى بلاده الفقهاء علي مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وتفقه في الدين"^(٢).

كما قدم عدد من الفقهاء المغاربة إلى مالي، فبحسب شهادة ابن بطوطة كانت مالي محلة خاصة للبيض^(٣) من الفقهاء والعلماء والتجار المغاربة والمصريين، ومنهم الشيخ الثقة أبو عباس سعيد الدكالي الذي أقام بمملكة مالي مدة طويلة، وكان من بين مصادر العمري عن مالي، ولكننا لا نعلم متى وأين التقيا، ولكن يظهر من خلال اللقب الذي يمنحه العمري لسعيد الدكالي أن هذا الأخير كان يشغل إحدى الخطط الدينية بعاصمة مالي^(٤).

كان موجودا أثناء مرور حسن الوزان فكان يدعى عمر بن محمد التدي المتوفى عام (١٥٢١م/٩٢٠هـ)، وقد نصبه أسكيا الحاج محمد عام (١٤٩٣م/٨٩٩هـ) الحسن الوزان : مصدر سابق، ص ٥٤٠.

(١) المصدر السابق والصفحة .

(٢) ابن بطوطة : مصدر سابق، ص ٦٦٩، ٦٧٢، أحمد الشكري : مصدر سابق، ص ١٧٨.

(٣) العمري : مصدر سابق، ص ٧١.

(٤) السعدي : مصدر سابق، ص ٦٧٤.

(٥) ابن خلدون : مصدر سابق، ص ١٨٩٦.

والقاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسول ، وهو من أهل سجلماسة ، دخل مدينة جاو وأستقر بها عدة سنوات ، استعمله خلالها أهل المدينة في خطة القضاء ، وقد عاصر بن خلدون وصادقه وأمدّه بالكثير من المعلومات عن إمبراطورية مالي^(١) . ويغلب على الظن أن لقاءهما كان بالقاهرة خلال العقد الأخير من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي كما ذكر ابن بطوطة الفقيه محمد الفيلاي إمام مسجد البيضان^(٢) .

(٣) فقهاء المالكية ذوو الجذور العربية في دولة مالي :

بالإضافة إلى الأصول البربرية والسودانية عرفت مالي بعض الفقهاء العرب منهم الفقيه عبد الرحمن التميمي الذي قدم مع السلطان منسا موسى أثناء رحله حجه ، وذهب إلى فاس وأخذ الفقه المالكي^(٣) وعاد إلى تنبكت وأصبح من كبار فقهاء هذه المدينة .

وهكذا تعددت الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في السودان الغربي زمن دولة مالي الإسلامية ، ما بين عناصر سودانية وبربرية وعربية وإن كان العنصر الغالب لفقهاء البربر .

الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في زمن دولة صُنغي :

تعددت أيضا الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في بلاد السودان الغربي زمن دولة صُنغي ويأتي العنصر السوداني هو الأبرز بين الجذور الإثنية الأخرى فقد سمح تقادم الزمن في لظهور عائلات سودانية نبغت في مجال الفقه .

(١) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٧ .

(٢) الأرواني : مصدر سابق ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(١) فقهاء المالكية ذوو الأصول السودانية في دولة صنغي :

هناك عائلة سودانية كبيرة أنجبت العديد من الفقهاء المالكية ، وبالرغم من أن السعدي يُرجع أصل هذه العائلة إلى أحدي قبائل البربر الكبرى وهي قبائل صنهاجة الصحراوية^(١) ، إلا أن الباحثة تعتبر هذه الأسرة التي أنجبت كماً هائلاً من الفقهاء أسرة سودانية لقدم هجرتها إلى هناك ، بالإضافة إلى تلقيهم العلم والفقه في موطنهم وهو السودان الغربي خاصة في مدينة تنبكت .

وحسبما تذكر المصادر أن الجد الأكبر لهذه العائلة هو محمد بن عمر أقيت^(٢) الذي تنسب إليه وإلى سلالته أعظم العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الحياة العلمية والثقافية في المراكز العلمية بتنبكت، وهم يمثلون كذلك العنصر الغالب في الحركة الفكرية والثقافية في السودان الغربي كله.

المهم أن محمد أقيت وهو جد أسرة أقيت هاجر من موطنه الإصلي بلاد ماسنة إلى بلدة بيبير (ولاته) بسبب بغضة للفلولانيين الذين كانوا يجاورونه في السكن ، واستقر محمد بن عمر أقيت في تنبكت ثم حدثت مصاهرة بين أسرته وأسرة أندغ محمد^(٣) الذي كان قاضياً لتنبكت ، كما كان لأسرته نفوذ وشهرة في هذه المدينة ، وبهذه المصاهرة احتلت أسرة أقيت فيما بعد مكانة كبيرة^(٤) .

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) هو "محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن بكى بن تيق بن لف بن يحيى بن تشت بن تنفر بن حيراي بن أكبر بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، البرتلي : مصدر سابق ، ص ٣١ .

(٣) هو عبد الله أندغم حمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح " معدن العلم والصلاح ومنة تناسل كثير من شيوخ العلم والصلاح ومنهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات ومنهم من جهتيهما معا . فهو عالم جليل قاضي المسلمين ، قال عنة أحمد بابا رحمه الله هو أول من خدّم العلم من أجداده فيما أعلم وهو جد جندي لأمه أبو أم جندي أنظر ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٢٨ ، البرتلي : مصدر

وقد انحدر من أسرة أقيمت أشهر علماء الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، منهم أحمد بن عمر بن محمد أقيمت ، وهو والد جد الشيخ أحمد بابا التنبكتي ، وكان عالما صالحا عاش في بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي^(٣) ، والفقيه المختار النحوي بن عمر بن أحمد وقد لقب بالنحوي لبراعته في هذا الفن ، و الفقيه العالم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد أخو الفقيه المختار النحوي والذي كان من الفقهاء المتخصصين في تدريس كتاب التهذيب للبرادعي ، وكذلك الفقيه أحمد بري بن أحمد بن أندغ محمد أبو العباس وهو من شيوخ العلم في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في دولة صنغى^(٤)

وهناك الكثير من أبناء هذه الأسرة الذين نبغوا في علم الفقه أشرنا إليهم أثناء الحديث عن الخطط الدينية التي تولوها في الفصل الثالث وأيضا في الفصل الخامس أثناء الحديث عن جهودهم العلمية ، ونكتفي هنا بذكر بعض أفراد من هذه الأسرة الذين نبغوا في الفقه المالكي وليس جميعهم .

ومن العائلات السودانية التي نبغت في الفقه المالكي في السودان الغربي وهي من أصل سوداني عائلة بغيغ وهي أصلا من جنبي ، ويأتي علي رأس هذه العائلة الفقيه القاضي الصالح محمود بن أبي بكر بغيغ جنوى بلدا ومسكنا ونكرى أصلا^(٥)

سابق ص ١١٢ .

(١) من المعروف أن الأم والخال في جنوب الصحراء يلعبان دورا مهما بالنسبة للأولاد وتعليمهم ، أنظر عبد العزيز العلوي : التأثيرات الدينية والفكرية المغربية على السودان الغربي الوسيط ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، المملكة المغربية فاس ١٩٩٩ م ، ص ٤٠٥ .

(٢) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) السعدي : مصدر سابق ص ٢٩ ، البرتلي : مصدر سابق ، ص ٢٨ .

(٤) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص ٣٤١ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ١٩ .

وكان من نسله ابنه الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي الذي عرف بأسم محمد بيغيغ^(١).

وهناك عدد من الفقهاء الونكريين منهم الفقيه فودي محمد سانوا الونكري^(٢) الذي كان فقيها عالما عابدا صالحا وكان قد قدم إلى مدينة جني في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، وكان أول سكنه في قرية قريبة من مدينة جني تسمى طورا ، وكان يأتي من هذه القرية إلى مدينة جني في كل جمعة لأداء صلاة الجمعة بمسجدها الجامع حتى أحبه السلطان وأهالي جني وتآلفت قلوبهم معه ، عند ذلك طلب منه سلطان جني أن يسكن جني بدلا من قرية طورا فقبل الطلب. ومن فقهاء الونكريين أيضا الفقيه القاضي محمد بن بركات الذي كان فقيها عالما جليلا ونكري الأصل تولى القضاء بعد وفاة القاضي مؤدب بكر توري وهو آخر قضاة دولة السودانين^(٣).

والفقيه مورو محمد هوكار وهو من موز كير ، وفقهاؤها جميعهم من أصل واحد، ومن ذريته مور صادق بن الفقيه مورم عمك بن الفقيه مورو هوكار^(٤) وجميع من يلقب بمي كميديع ، ومي تنك ، وميهو ، وميكع ، وميفر ، وميتاص وميغي ، ومي يور ، وميزع ، واسم بلدهم ير ، وكل من كانوا في هذا الإقليم من أصل مغربي من وعكري وونكر^(٥) ، كذلك الفقيه الفع صالح جور الذي كان وعكري الأصل وهو جد أهل توتل^(٦).

(١) البرتل : مصدر سابق ، ص ١٣٣ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٨ .

(٦) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٣ .

وكان الفقيه القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمي دارا والتبكتي مسكنا، والوعكري أصلا قد ولد في منطقة كورما غرب جاو (٨٧٣-١٠٠٢هـ/١٤٦٨-١٥٩٣م) وعاصر أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد الذي حكم صنغى من (٨٩٩-٩٣٥هـ / ١٤٩٣ / ١٥٢٨م) وسكن تنبكت، وكان للقاضي الفقيه محمود كعت أولاد منهم القاضي إسماعيل بن محمود كعت^(١) والفقيه يوسف بن محمود كعت، والفقيه محمد الأمين بن محمود كعت، وحفيده ابن المختار وهو ابن بنت القاضي محمود كعت صاحب التاريخ، وهؤلاء من أسرة كعت وهم أعلام المؤرخين السودانيين^(٢).

وهناك أيضاً الفقيه مسربوب الزغراني التبكتي الذي ينسب إلى قبيلة الزغرانيين في غرب السودان الغربي، وكان رحمه الله عالماً فاضلاً خيراً صالحاً نادر المثال في قبيلته، وقد اشتهر بالعلم والصلاح على الرغم من أنه ينحدر من قبيلة الزغراني التي يصفها السعدي والتواتي بأنها لاتعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام^(٣). كما ذكرت المصادر الفقيه السوداني الأصل وهو القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف وتقول أنه جنوى الأصل والبلد، وكان خطيباً ثم صار إمام الجامع ثم قاضياً فجمع المراتب الثلاث^(٤).

(٢) فقهاء المالكية ذوو الأصول البربرية في دولة صنغى :

أما في دولة صنغى فتذكر المصادر الفقيه الإمام محمد بن عبد الكريم المغيل الذي ولد بمدينة تلمسان عام ٥٧٩٠هـ / ١٣٨٨م وهو من أسرة عريقة، فقد تربى في فترة

(١) محمود كعت :مصدر سابق ، ص ٧٥، ١١٦، أحمد بابا : مصدر سابق ، ص ٥٧٨، السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٩.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٤٢.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥١، ٥٢، البرتلي : مصدر سابق ، ص ١٤٧.

(٤) نفس المصدر : ص ١٩، ٢٠.

شبابه في توات في الصحراء ، وانتقل إلى فاس بهدف الدراسة ، ثم ارتحل إلى السودان حيث دخل بلاد أمهر و تكدا و سيقو و كاشنا ثم رحل إلى جاو واتصل فيها بالاسكيا الحاج محمد الكبير ، فتذاكر معه في جملة من المسائل الفقهية ، وألف في السودان عشرات الكتب والشروح أضاءت الحياة العلمية في السودان الغربي^(١) ، وكانت له مع علماء فاس مسائل فقهية أخذت شكل الخلاف ، كما اشتهر بعدائه ليهود توات^(٢) ، والفقير عبد الله البلبالي الذي قدم مع كاتب السلطان منسا موسى من مدينة فاس^(٣) .

كما كان الفقيه العاقب بن عبد الله الانصمى المسوفى الذي كان حيا في (١٥٤٣هـ / ١٥٤٣م) من أهل تكدا وهي بلدة قريبة من بلاد السودان عمرتها صنهاجة^(٤) ، وأبو القاسم التواتي الذي جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلات بالمغرب ، وابتنى دارا بالقرب من المسجد الجامع بتنيكت ، وظل هناك الى أن توفي بتنيكت عام (١٥٢٢هـ / ١٥١٦م) وكان بتلك المدينة خمسون عالما من توات^(٥) .

وكذلك الفقيه عبد الرحمن بن علي بن احمد القصرى الفاسى الذي توفي عام (١٥٤٩هـ / ١٥٤٩م) والذي ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط ، وأخذ علم الحديث بمصر ثم ذهب لبلاد السودان^(٦) .

(١) أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ .

(٢) المغيلي "محمد عبد الكريم المغيلي" : مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، تقديم وتحقيق رابع بونار ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٦٨م ، ص ١٧ ، مطير سعد غيث أحمد : الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي ، لبنان ، دار المدار الإسلامي ، ط ١ ، ٢٠٠٤م ، ص ٢٦٩ .

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٤٤ .

(٤) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص ٣٥٣ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٤١ ، محمد مخلوف : مصدر سابق ، ص ٤٠٣ .

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٦ البرتلى : مصدر سابق ، ص ١٥٥ .

(٦) السعدي : نفس المصدر والصفحة ، البرتلى : نفس المصدر والصفحة .

أما الفقيه مور كنكى فقد رحل من قرينته إلى كابرا لتلقى العلم من علمائها ، ثم رحل إلى جنبي بعد أن تلقى تعليمه في كابرا ، وذلك في منتصف القرن التاسع الهجري ، وظل في جنبي حتى علم أن هناك من لا يرغب في وجوده فأرتحل عنها ، وكان سبب رحيله من جنبي أنه كان يصلى صلاة الصبح مع جماعة ذات يوم فسمع رجلاً بجانبه يقول في سجوده : " اللهم إن مورمغ كنكى ضيق علينا البلد أرحنا منه " فلما سلم قال يا رب لا أعرف مضرتي للناس حتى يُدعى عليّ فأرتحل يؤمئذ من جنبي إلى كونا فنزل فيها ، وسمع بخبرة أهل جنج فبعثوا له القارب وارتحل فسكن في جنج إلى أن توفي بها^(١) .

ومن الفقهاء ذوو الأصول البربرية أيضاً الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختى الذي عرف بأيد أحمد المتوفى عام (٩٦٠هـ / ١٥٢٩م)^(٢) ، والفقيه على الجزولى الذي ولاه الإمامة القاضي محمود^(٣) ، والفقيه فياض الغدامسى ، وهو الذي صلى على أبي القاسم التواتى^(٤) ، والفقيه محمد تل الشريف وهو جد أهل ذكر وينسبونه إلى بني مداس والذي حج مع الاسكيا محمد الذي كان يحترمه احتراماً عظيماً^(٥) . والفقيه صديق بن محمد تعلق الكابرى الأصل المتوفى عام (٩٧٣هـ / ١٥٦٥م)^(٦) ، والجنوى المولد الذي كان عالماً فقيهاً فاضلاً خيراً صالحاً وهو من علماء بلدة جنج القريبة من تنبكت والمجاورة لها ، وقد جاء إلى تنبكت لينهل من منابع العلم والمعرفة والثقافة وتوطن بها ، رغم أنه كان صاحب مدرسة

(١) نفس المصدر : ص ١٦ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٠ ، البرتلى : مصدر سابق ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٨ ، البرتلى : مصدر سابق ، ص ٦٩ .

(٤) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٨٢ .

(٦) - البرتلى : مصدر سابق ، ص ١٥٥ .

في بلدته جنج وفيها طلبته النجباء. (١).

كما وجدت عائلات مغربية بالسودان الغربي ، وهي عائلة تعلق ، وعلى رأسها إمام المسجد الكبير محمد بن الصديق (٢) ، وعائلة الخضر (٣) وكان جدها الأول الذي قدم من فاس كاتباً خاصاً لسني علي ، والعائلة الثالثة هي العائلة التواتية (٤) ، والرابعة هي عائلة القصري (٥) ، وأخيراً عائلة الفيلاي في تنبكت وديني و جاو (٦).

(٣) فقهاء المالكية ذوو الجذور العربية في دولة صنغفي:

وتتحدث المصادر عن الفقيه يحيى التادلسي (٧) المتوفى عام (٨٦٦هـ / ١٤٦١م) والذي كان قد قدم إلى تنبكت زمن ولاية محمد نض بين عامي (٨٣٧-٨٧٦هـ / ١٤٣٣-١٤٧١م) وتلقاه محمد نض عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبنى له مسجداً وجعله إماماً له، وعرف هذا المسجد بمسجد سيدي يحيى. والفقيه أحمد الصقلي (٨) الذي جاء إلى دولة صنغفي في عام (٩٢٥هـ / ١٥١٩م) بناء

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦١.

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٨.

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩ ، ٦٠.

(٤) هو : "عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفياني " أنظر أحمد بابا : مصدر سابق ، ص ٢٦٤.

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص ٢٨.

(٦) المصدر السابق : ص ٣٠٨.

(٧) يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء بن أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرم بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنظر السعدي : مصدر سابق ص ٥٠.

(٨) هو أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس بن أبي يعزى بن حسن بن إبراهيم بن عبد الله بن عيسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن عرف بزين العابدين بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأمة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، أنظر محمود كحت : مصدر سابق ، ص ١٩.

على طلب الأسكيا محمد الكبير أثناء رحلته حجة من شريف مكة ليتبرك به^(١).

وهكذا تعددت أيضا الجذور الإثنية لفقهاء المالكية في دولة صُنغي ما بين عناصر سودانية وبربرية وعربية .

ثانياً: المكانة الاجتماعية لفقهاء المالكية بين طبقات المجتمع :

احتل فقهاء المالكية في بلاد السودان الغربي مكانة اجتماعية مهمة بين طبقات المجتمع السوداني الذي تعددت طبقاته ، وقد تعددت العوامل المؤثرة في التكوين الطبقي والاجتماعي لمجتمع دولتي مالي و صُنغي ، من هذه العوامل النسب الشريف ، فقد تمتعت الأسر الشريفة بمكانة مرموقة حيث كانت تعفى من الضرائب ، ويمنح لها مظاهر التوقير والاحترام والتقدير، وتقدم أسرة الشريف الحسنى خير دليل على ذلك ، وبدل عليه أيضاً أمر أسكيا محمد بن داوود بإعفاء عبيده من جميع وظائف السلطنة الوضيعة احتراماً وتقديراً لمقام سيدهم الشريف^(٢).

وقد ربط ابن خلدون^(٣) أصالة النسب والشرف بمعيار آخر ألا وهو المعيار الأخلاقي "فمن استحكمت فيه صنعة الرذائل بأي وجه كان ، وفسد خلق الخير فيه لم ينفع ذكاء نسبه ولا طيب منبته " ، وعلى هذا الأساس الأخلاقي تمكن البعض من

(١) المصدر السابق ، ص ١٦ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٨ ، ١٩ ، وكذلك عندما حدث أن أسكيا داود قتل أحد الأشراف خطأ عام (٩٩٩هـ / ١٥٨٣م) ، فندم وأخذ يبكي أياماً ، وعزم على صوم الدهر ، وعندما جمع العلماء واستفتاهم في الاستغفار لهذا الذنب العظيم قالوا له : " أن تفرغ إلى رسول الله ﷺ وتهرب وتدخل في حرمة وتستشفع به ﷺ ، وإذا لم تقدر فلك دية في الشرع " وقدروا الدية بثلاثين نفساً يعطيها لأخ القتل ، ولما سأل أخ القتل عما يفضل من الأموال اختار الأرض فأعطاه ثلاث ضياع بعبيدها ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

احتلال مكانة اجتماعية حسنة^(١) حيث احتلت كثير من العائلات وضعية طبقية متميزة عن طريق النسب والوراثة والأخلاق ، نذكر من بينها أسرة الشريف أحمد الصقلي الذي ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(٢).

ومن العوامل المؤثرة في التكوين الطبقي لمجتمع دولتي مالي وُصنغى أيضا عامل القرابة ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بالعصبية ، ومما لاشك فيه أن هذا العنصر قد اكتسب وزناً في صياغة البناء الطبقي الذي من أهدافه السيادة على دفة الحكم ، وجعل السلطة حكراً على أقاربها ، حيث كانت الحاشية والأمراء النبلاء وقواد الفرق العسكرية و حكام الأقاليم من بين أقربائه المخلصين^(٣).

العامل الثالث المؤثر في التكوين الطبقي المذهب الديني للدولة وهو المذهب المالكي ، فقد لعب دوراً جوهرياً في تحديد الوضعية الاجتماعية لكبار فقهاء هذا المذهب ، إذ أصبح الفقه المالكي مطية لنيل المناصب الدينية العليا وارتفاع المكانة الاجتماعية ، وللتدليل على أهميه العلم والمذهب المالكي في ارتقاء الهرم الاجتماعي نورد نصاً مهماً، عبارة عن وصية من أب لابنه يقول فيها : "العلم شئ حسن ، فكن له ذا طلب ، وابدأه بالنحو ، وخذ من بعده في الأدب ، فإن أردت أن ترى جاهاً ونيل مكتسب ، فافهم أصول مالك ، واحفظ فروع المذهب ، فإن قول مالك سلسلة من ذهب ، واعمل بها حفظته تحظى بأعلى الرتب"^(٤) وخير دليل على أن الدراسة و

(١) محمود مكي : "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين" مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدان ٧ ، ٨ ، عام ١٩٥٩-١٩٦٠ ، ص ١٨٣ ، ١٨٢ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٩ .

(٣) المصدر سابق ، ص ٤٦ ، عبد القادر زيادية : مرجع سابق ، ص ٤٥ .

(٤) ابن قنقد : أنس الفقير وعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور ، الرباط ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٧ .

تحصيل العلم قد أتاحا للبعض فرصة الارتقاء الاجتماعي، هو عائلة أقيت وعائلة بيغنيغ نهض بهم علمهم حتى صاروا من أعلام البلاد وأبرزهم مكانة، وتقلدوا بعلمهم أرفع المناصب في الدولة^(١).

ومن هذا يتضح أن مجتمع دولتي مالي وُصنفي مجتمع طبقي، حيث ارتكزت فيه الطبقة علي جملة من العوامل التي أعطت لها خصوصيتها من أهمها السلطة والجاه، وشرف النسب، والعلم، والقرباة. كما لعب المذهب المالكي دوراً في رفعة مكانة فقهاء هذا المذهب أيا كانت طبقاتهم التي يتسبون لها.

ومن هنا يمكننا تقسيم المجتمع في دولتي مالي وُصنفي آنذاك إلى طبقتين رئيسيتين هما: طبقة الخاصة، وطبقة العامة، حيث اندرج تحت كل طبقة مستويات مختلفة وفئات متباينة وسنحاول فيما يلي أن نعرض لكل طبقة لتتعرف على المكانة الاجتماعية لفقهاء المالكية بين طبقات المجتمع المختلفة.

١- مكانة فقهاء المالكية لدي طبقة الخاصة :

تكونت هذه الطبقة أصلاً من أفراد الأسرة الحاكمة والحاشية وقادة الجند ورجال الدولة وحكام الأقاليم، وفقهاء السلطة والأعيان، فضلاً عن بعض البيوتات الوجيهة المرتبطة بجهاز السلطة، وكانت هذه الطبقة هي أقل الفئات عدداً، ولكنها أكثرها سطوة وجاهاً، وغني وثناء، وكان قمة هذه الطبقة بلاط دولة مالي الإسلامية الذي كان مليئاً بالفقهاء، وقد حظي هؤلاء العلماء الفقهاء بمنزلة كبيرة لدى حكام مالي حيث كانوا من المقربين إليهم، فهاهو الفقيه أبو عباس الدكالي^(٢)،

(١) السعدي : مصدر سابق، ص ٣٠٨.

(٢) نسبة إلى مدينة دكالة وهي : " تعرف كذلك باسم "يمويمن" وتقع بين مدينة مراكش وبين البحر المحيط، وهي مدينة كبيرة وهي نهاية ففي العبارة، أنظر : الحميري : مصدر سابق، ص ٦١٩.

الذي كان معاصراً لمنسا موسى وكان يتولى خطة القضاء ويتمتع هذا الفقيه بمقام واحترام كبيرين^(١).

كما كان هناك أيضاً الفقيه القاضي أنفارقم الذي كانت له علاقة خاصة مع منسا موسى والذي كان يوقره ويحترمه كثيراً ، حيث كان هو الوحيد الذي يصفحه^(٢). بالإضافة إلى الفقهاء الذين كانوا موجودين في دولة مالي ، ويذكر لنا ابن بطوطة أن مجلس منسا سليمان كان يحضره الخطيب والقاضي ، وكان هذان ضمن حاشيته المقربين^(٣). وما يدل على ارتفاع مكانة الفقهاء لدى حكام مالي ما حدث في بلاط منسا سليمان ، حيث قامت زوجته (قسا) بالتآمر عليه مع ابن عمه ، وبعد اكتشاف أمرهما عزم منسا سليمان على معاقبه زوجته ، فهربت تلك الزوجة إلى دار الخطيب بعد عدم تمكنها من دخول المسجد . فلم يلحق بها أي أذى بسبب دخولها دار الخطيب ، مما يؤكد ارتفاع مكانة هؤلاء الفقهاء^(٤).

وقد ارتفعت مكانة فقهاء المالكية في دولة صُنغي لدي أفراد هذه الطبقة ، فقد اشتهر أسكيا محمد بحسن سياسته مع العلماء والقضاة والتي تتلخص في الإحسان إليهم بكثرة العطاء^(٥). كما أنه كان يقدر العلم وأهله ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم ، وأمر بالأيقف أحد إلا للعلماء والحجاج ، ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم^(٦)، وقد جعل ذلك قاعدة لمن أتوا من بعده ، ونرى هذا جلياً من

(١) ابن بطوطة : رحلته، ص ٦٥٥.

(٢) يعتبر هذا حدثاً عظيماً جداً ، حيث كانت العادة هناك في السلام على ملوك السودان يكون بواسطة رمي التراب ، أو الدقيق على رأس الداخل عليه إظهاراً للتذلل أو الوقوع على الأرض والسجود له ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٣٥.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٧.

(٤) المصدر السابق : ص ٦٧٠ ، ٦٧١.

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٧٢ ، ٧٣.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

خلال عطاء الأسكيا محمد للقاضي المالكي محمود كعت (١٥٧٣-١٠٠٢هـ / ١٤٦٨-١٥٩٣م)^(١) ، فقد اشتهر أسكيا محمد بسياسته هذه مع العلماء والقضاة كافة والتي تتلخص في التقرب إليهم بكثرة العطاء^(٢).

وثمة كثير من النصوص تبين ارتفاع مكانة فقهاء المالكية الاجتماعية لدى الأساكى ، يؤكد ذلك ما حظوا به من عطف وتقدير من جانب الأساكى ، ويتجلى ذلك من خلال التوصيات التي أكدت على وجوب تعظيمهم ، فضلاً عما حازوه من هبات وإنعامات جعلت ابن خلدون يخلص إلى القول بأن "لحملة العلم بدولتهم مكان من الوجاهة"^(٣) "وكانت خطة القضاء أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، كما كانت سمة الفقيه عندهم جليلة ، ولا مرأى في أن الثروات الواسعة إلى جانب الجاه الذي احتموا به أعطاهم مكانة اجتماعية ونفوذاً قل نظيره ، حتى إن بعضهم صاروا يدخلون المدن دخولا رسمياً يشبه دخول الأمراء ، ومن ذلك ما حدث مع أسكيا داوود الذي وصفته بعض المصادر بأنه كان شديد التعظيم والإجلال لهم "يقربهم ويكرمهم" شديد الاحتفاء بهم ، ومن ذلك خروجه لاستقبال القاضي محمود كعت حينما قدم إلى جاو، حيث أكرمه كرماً يليق بالعلماء^(٤)

وتذكر المصادر أن أسكيا داوود (٩١٣-٩٩١هـ / ١٥٤٩-١٥٨٢م) كثر عطاؤه للقاضي المالكي العاقب المتوفى عام (٩٩١هـ / ١٥٨٣) فأعطاه مائة من الذهب وطلب منه أن يقسمها بينه وبين أهله وذريته وبين من يستحق شيئاً منهم^(٥).

(١) كرم الصاوي باز : البيت والعائلة السنغائية زمن الاسكيين (٨٩٩-١٠٠٠هـ /

١٤٩٣-١٥٩١م)، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٥م ، ص ١٦ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٤) الحاج مرجبا : فتح الحنان المنان بأخبار السودان ، معهد البحوث والعلوم الإنسانية ، نيامي النيجر ،

رقم ١٠٨ ، ص ٢٣ ب .

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

وقد نال هؤلاء الفقهاء مكانةً ونفوذاً في المجتمع الذي يجلبهم لكونهم حفظة الدين وحملة الشريعة ، وبالتالي أصبحوا محل رعاية خاصة من جانب الملوك والوجهاء والعامة على السواء^(١). ومن البيهقي أن يحتل بعضهم مكانته ضمن طبقه الخاصة ، فهم يعتبرون العارفين بأحكام الغنائم والخراج والجباية وغيرها من الأحكام الفقهية ، وهم الذين يفتون بشرعية توجهات الملوك والأساكي . ومن ذلك ما حدث مع الفقيه محمود كعت عندما خرج مع الأسكيا داوود لاستقبال الحجيج وتقديم الهدايا لهم بعد عودتهم من رحلة الحج ، وقام الأسكيا داوود بنفسه تعظيماً لهم وقبل أيديهم ، وأقبل على رجل من عبيده يقبل يده وهولاً يعرفه ، فأشار له أحد رجال الدولة بأنه من العبيد ، وثار الأسكيا ، وهناك من حلف بقطع يد هذا العبد لتجرته على مصافحة الأسكيا . وهنا سأل الأسكيا داوود الفقيه محمود كعت الذي أشار عليه بتقدير هذا العبد لأدائه فريضة الحج واستجاب هذا الأسكيا وقال للقاضي محمود كعت : "ولولا العلماء لكننا من الهالكين فجزأك الله عنا خيراً"^(٢) .

وكان بعض الفقهاء قد أهدتهم ثروتهم المادية والعقارية لتصدر قمه الهرم الاجتماعي كما هو الحال لأسرة أقيت ، وإذا كان هناك بعض الفقهاء الذين رفضوا أن يكونوا في زمرة الفئة الحاكمة فتهربوا من المناصب العليا فقد كان هناك بعض الفقهاء الذين تولوا بعض الخطط الدينية في الدولة واستغلوا مكانتهم لرعاية شؤون العامة والدفاع عنهم والشفاعة لهم ، وخير دليل على ذلك الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذي عرف برقه القلب كما كان عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك و الناس كافة نافعا لهم بجاهه لا ترد له شفاعة ، كما عرف بإنصافه للناس جميعاً دون تمييز^(٣) .

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٧٦ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٤٢ .

كما كان هؤلاء الفقهاء يمثلون الهيئة الأكثر اعتباراً بين أفراد الطبقة الخاصة من حيث الثراء والسلطة^(١) ، وقد تولوا مناصب ذات أهمية ، على رأسها القضاء ، والفتوى ، والتدريس ، والإمامة ، والخطابة ، وغيرها من المناصب^(٢) وكان الحكام كثيراً ما يطلبون من بعضهم المشورة وإبداء الرأي في عدد من الأمور ويتضح هذا في أسئلة الاسكيا محمد للفتية المالكية المغيلي ، كما أخذ أسكيا داود رأي القاضي محمود كعت في كثير من الأمور^(٣) .

وهكذا ارتفعت مكانة معظم فقهاء المالكية ، يتبين ذلك من خلال الاحتفالات التي أقاموها في بيوتهم لتقبل التهاني من الأساكى والأعيان والأهالي في مناسباتهم الخاصة . وعندما رزق القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بابنه محمد أهدي له أسكيا ألف مقال من ذهب^(٤) .

ومما يؤكد أيضاً المستوى الاجتماعي الرفيع الذي كانت تعيش فيه هذه الفئة الخاصة المثقفة من فقهاء المالكية في تنبكت ، ما أصابها بعد نكبتها في عهد سني على وفرارهم باتجاه ولاية ، فكان ذلك أكبر نكبة عرفتها الطبقة المثقفة لأن اشتغالهم بالعلم دون العمل اليدوي جعلهم في حال ضعيفة^(٥) .

كما كانت هذه الفئة من الفقهاء تمتلك الخدم والعبيد ، كما كانوا يملكون وكلاء ينوبون عنهم في بعض المهام التي توكل إليهم مما أعطاهم الفرصة لحضور

(١) محمود كعت: مصدر سابق، ١٧٢، ١٧٣ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥١

(٣) محمود كعت: مصدر سابق، ص ٩٧ ، السعدي : مصدر سابق، ص ٢٨ .

(٤) السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٤ .

(٥) يقول السعدي في هذا الصدد : " ... ويوم الرحيل ترى رجلاً كبيراً بلحجته إذا أراد أن يركب الإبل يبقى يرتعد خوفاً منه وإذا ركب طاح على الأرض عند قيامه لأن الأسلاف الصالحين أمسكوا أولادهم في جحورهم حتى كبروا ولا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا ... " ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٥ .

الاحتفالات وحضور دروس الوعظ التي كانت تعقد ليلاً حيث كانوا قادتها وروادها ولذا كانوا على علم كبير ودائم بالحوادث الهامة في البلاد^(١).

وهكذا اندرجت العائلات التي انتسب إليها فقهاء المالكية ضمن طبقة الخاصة، حيث اكتسبت هذه العائلات مكانة اجتماعية مرموقة بفضل توارث أفرادها بعض الخطط والوظائف الدينية والقضائية الرفيعة في جهاز الدولة، ولاسيما منصب القضاء خاصة في عهد دولة صنغى^(٢). وقد عاش معظم أفراد الطبقة الخاصة عيشة رغدة، وتمتعت بكل المزايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحصلت على امتيازات كبيرة من الحكام^(٣).

٢- مكانة فقهاء المالكية لدى طبقة العامة:

حوت طبقة العامة شرائح اجتماعية متنوعة و شكل وضعها المادي المتردي قاسماً مشتركاً بينها، فشملت الحرفيين والصناع والمزارعين والرعاة والصيادين، بالإضافة إلى العبيد والأقنان.

وقد اعتقد بعض المؤرخين المحدثين^(٤) أن الفقهاء طبقة تعاونت مع الحكام لتغذية طبقة العامة بمفاهيم القضاء والقدر وبشرعية الحكم وإطاعة أولى الأمر. ولكن الحقيقة التي لا تقبل الشك أنه لم يكن الفقهاء طبقة اجتماعية بقدر ما كانوا شريحة اجتماعية على امتداد مجتمع السودان الغربي كله، فبعضهم كان من المياسير والأغنياء، وقد احتل هؤلاء الفقهاء مكانة خاصة لدى طبقة العامة في دولتي مالي

(١) محمود كعت: مصدر سابق، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) المصدر السابق: ص ١٠٦، ١٠٧.

(٤) محمود إسماعيل: سوسولوجيا الفكر الإسلامي، دار الثقافة الجديدة، تونس ١٩٧٨، ج ١،

وُصِنفى . ويرجع ذلك لكثرة الصدقة والعطاء للفقراء من جانبهم . ومن هؤلاء الفقهاء الفقيه الزاهد أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذي توفي عام (٩٩١هـ / ١٥٨٣م) والذي كان خيراً صيتاً وورعاً زاهداً تقياً أوها ولباً مباركاً ، معروف الصلاح ظاهر الزهد والورع متين الدين كثير الصدقة والعطاء^(١) . كما كان الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى غريان الرأس المتوفى عام (١٠٢٠هـ / ١٦١١م)^(٢) زاهداً سخياً أخرج من ماله كله صدقة لله على الفقراء والمساكين وكذلك قام بشراء كثير من العبيد وأعتقهم لوجه الله تعالى^(٣)

كما كان فقهاء المالكية يتمتعون بمكانة ومنزلة رفيعة سواء لدى الطبقة الحاكمة أو لدى طبقة العامة ، حيث كانوا يقومون بدور الوسيط بينهم ، ومن ذلك كما تحدثت المصادر عن الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي المتوفى عام (١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م)^(٤) الذي يقال عنه إنه كان يسعى في حوائجهم ويضر نفسه لنفعهم ، ويتفجع لمكروهم ، ويصلح بينهم وينصحهم^(٥) . وكذلك الفقيه صالح بن محمد أند عمر المعروف (بصالح تكن) المستحرم عند السلاطين والذي كان يتشفع عندهم للمساكين ولا ترد له شفاعته^(٦) .

كما كان هؤلاء الفقهاء ملجأ للعامة من بطش هؤلاء الحكام ، فكانوا يفرون إلى دار الفقيه (القاضي أو الإمام) إذا تعرضوا لخطر وهذه الحالة ومثلها كان قاعدة

(١) نفس المصدر : ص ٤٦ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(٤) المصدر السابق : ص ٤٦ .

(٥) المصدر السابق : ص ٤٤ .

(٦) المصدر السابق : ص ٣٦ .

قانونية لا يجوز للسلطان تعديها^(١) أو للفقهاء أن يردوها ولكن كان من واجبة الشرعي إرشاده إلى طريق الصواب والذي يتلاءم مع الشرعية الإسلامية^(٢) من ذلك ما حدث زمن منسا سليمان ، حيث قامت زوجته قاسا بالتآمر عليه مع ابن عمه ، وبعد افتضاح أمرهما ، عزم منسا سليمان على معاقبة زوجته ، التي هربت واستجارت بدار الخطيب بعد عدم تمكنها من المسجد فلم يلحقها أي أذى^(٣).

وقد تعلق قلب العامة من الفقراء والمساكين بالفقهاء بسبب الاهتمام بهم أثناء المحن والكوارث ، حيث إنهم اعتادوا على إظهار أعمال البر والخير ، وكذلك حث طبقة الخاصة والمياسير تجاه هؤلاء بكثرة الصدقات ومنح العطايا والهبات. فعندما حدثت المجاعة التي راح ضحيتها كثير من هؤلاء العامة (الفقراء والمساكين) قام الفقيه محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي (٩٣٠ - ١٠٠٢ هـ / ١٥٢٣-١٥٩٣ م) بجمع التبرعات من المياسير في مدرسة الفقيه القاضي مؤدب محمد الكابري لتوزيعها على هؤلاء الفقراء والمساكين عند باب سنكري^(٤).

كما كان الفقهاء دائما يحثون الأسر الحاكمة على الاهتمام بالفقراء والمساكين وتقديم المساعدات لهم ، وخير دليل على ذلك أن القاضي العاقب بن محمود كان يأخذ من الأسكيا داود كل عام أربعة آلاف صينية ليقسمها على فقراء المدينة والمساكين^(٥).

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٩٧ ، السعدي: مصدر سابق ، ص ٢٨.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧١.

(٤) ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده فيسقطها له بموضع يستحقه : حتي يذهب إلى

المسجد ، أنظر رحله ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٦٧٢.

(٥) محمود كعت : مصدر سابق ص ١١٥ .

وقد زاد من مكانة فقهاء المالكية في مجتمع دولتي مالي وُصنغى ما أظهره بعضهم من بعض الكرامات التي تحدثت عنها بعض المصادر والمراجع منسوبة لعدد كبير من فضلاء الفقهاء المالكية والتي كان لها دور و أثر عميق في قلوب الخاصة والعامّة على السواء، مما يدل على تقدير الفقهاء والعلماء في هذه البلاد، وخير دليل على ذلك ما ورد في كتاب أحمد بابا (تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء) عن بعض خصائص هؤلاء العلماء وما تمتعوا به من مكانة فقال: "...هذا جزء قصدتُ فيه إلى ذكر ما ورد من فضل العلماء والأخبار من الآيات والأخبار التي روتها الأئمة الأبرار، بما خصوا به من أنواع الإكرام، ومزيد الاعتبار، على جميع الخلق في كل الإعصار، ليكون تنبيها لمن جهل جليل ما لهم من عظيم المقدار ليوفيهم ويجعلهم وسيلة لربه في المهّمات الكبار..."^(١) إلى غير ذلك من كتب المصادر التي بينت مكانة فقهاء المالكية وخاصة بما أمتازوا به من قوة ودعم الإسلام في هذه البقاع النائية.

(١) أحمد بابا: تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، تحقيق سعيد سامي، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط، نصوص ووثائق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ١٣، ومن ذلك ما ذكرته كتب المصادر عن سيدي يحيى، فتقول: حدثنا الشيخ الفقيه الأمين بن أحمد أن جوارى الشيخ سيدي يحيى طبخن حوتا طريا من الصباح إلى العشى فلم تؤثر فيه النار فتعجبين من ذلك حتى سمعه الشيخ فقال لمن: "أن رجلي مست شيئا مبلولا في السقيفة حين خرجت لصلاة الصبح اليوم لعل هو والنار لأتحرق ما من جلستي"... أنظر السعدي: مصدر سابق، ص ٥١، وكذلك ما جاءت به كتب المصادر عن الفقيه أحمد بن عمر محمد أقيت أنه لما زار القبر الشريف طلب الدخول إلى داخله فجلس خارجه يمدحه ^{كلمة}فأنحل الباب له وحنة بلا سبب فتبادروا لتقيل يده، والفقيه عمود بن عمر بن محمد أقيت، صاحب الكرامات كم نودي في مواطن الغيبة لتفريج الشدائد والمهمات فحضر وأنفذ...! وبعد ما دفن أخوة الأكبر الحاج أحمد ورجع لدارة صار حزينا جدا بحيث يعزبه الناس ولا يفتن لهم، فلما جاء بدار عثمان طالب تنفس الصعداء، وقال الآن أفترق أخي أحمد عن الللائكة وعلم الناس أنه يشاهدهم، وتقول المصادر إن هذا نوع عظيم من الكرامات والمكاشفات أنظر السعدي المصدر السابق، ص ٣١، وهذا الفقيه إبراهيم بن الفقيه القاضي عمر حدث بينه وبين الاسكيا محمد مشادة قام مغضبا فسار نحو المرسى وقال لا صحابه: نسير ونقطع البحر ونمشى في حالنا، فلما وصل البحر أراد أن يدخل فيه قالوا: له القارب ما كانت الساعة أصبر حتى يجيشى قال: ولو لم يكن ففهموا منه أنه يقطع البحر بلا

ثالثاً: دور فقهاء المالكية تجاه العادات والتقاليد ذات الأصول الوثنية:

حاول فقهاء المالكية جاهدين تبني المفاهيم الإسلامية في الأوساط الاجتماعية داخل مجتمع السودان الغربي على مختلف فئاته حيث كان هذا المجتمع قد أخذ معه الكثير من العادات والتقاليد ذات الأصول الوثنية ، وذلك أثناء تحوله إلى الإسلام ، وقد واجه العلماء كثيراً من المخالفات الاجتماعية والبدع وكثيراً من مظاهر الشرك التي كانت سائدة قبل الإسلام حيث ألقت هذه الوثنيات القديمة بظلالها على عادات الكثير منهم نتيجة تمسكهم بتلك العادات التي توارثوها عن أسلافهم

ولما كان الفقهاء يمثلون الطبقة الدينية المثقفة في المجتمع فقد كانوا موضع نظر الحكام والعامّة على السواء ، يسترشدون برأيهم ويتظرون موافقهم الإصلاحية . ومن هنا كان عبء الإصلاحات الاجتماعية ومحاولة الحفاظ على قيم المجتمع المسلم ومبادئه ملقاة في المقام الأول على كواهل هؤلاء الفقهاء فأعين الناس حكاماً ومحكومين تتجه إليهم .

وقد بذل هؤلاء الفقهاء جهوداً كبيرة وشاقة في مقاومة فساد الأجواء المحيطة بهم ومحاربة الفساد والمفسدين في البلاد ، كما حاولوا المحافظة على الآداب العامة في

قارب (أي عنده مقدرة على المشي على الماء) ، أنظر السعدي المصدر السابق ، للفتية أبي القاسم التواتي : المتوفى عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) الذي كان صاحب كرامات وبركات يطعم الطعام وكثرة أطعمته للمداحين لشدة محبته للمدح التي ﷺ وموضع المدح قريب من داره ومتى سمعهم يمدحون خرج إليهم بالأرغفة المسخونة كأنها خرجت من الفرن في تلك اللحظة ولو كان في جوف الليل حتى تبين للناس أنها نوع من الكرامة ، ومن كراماته أيضاً أن المؤمنين رأوا الماء يقطر من ثيابه يوماً واحداً رهو في صلاة الصبح ويفلس بها جداً فلما سئل ؟ قال : استغاث بي غريق تلك الساعة في بحر دب فأنقذته من الغرق في الماء (وهو جالس معهم بدون ذهاب) وروى أن الناس ازدحموا على نعشه في الليلة الماضية وتصادموا حتى سقطوا على الأرض جميعاً وبقي النعش في الهواء واقفاً بقدرته الباري سبحانه حتى حوا وأمسكوه ورأي الناس هناك جماعة كثيرة غير معروفين وذلك من كراماته والله أعلم. أنظر السعدي : المصدر السابق ، ص ٥٩ ، وغير ذلك كثير في كتب المصادر .

الطرق والمناسبات المختلفة وغير ذلك . وقد حملت أسئلة فقهاء المالكية إلى الإمام السيوطي ، وكذلك أسئلة الأسكيا محمد إلى الإمام المغيلي كثيراً من هذه المهموم لاستبيان رأى الدين الإسلامي فيها .

ويمكن تقسيم عادات أهل السودان الغربي إلى عادات إيجابية وأخرى سلبية، ويأتي على رأس العادات الإيجابية ظاهرة التدين ، التي أشار إليها الرحالة الذين خالطوا أهل هذه البلاد ، فها هو ابن بطوطة^(١) يصف سكان تلك البلاد الذين عاينهم وتعامل معهم خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر للميلاد ، فذكر أنه "في كثير منهم التدين القوي" . وتجلت مظاهر هذا التدين في أروع صورها إبان محافظتهم على الصلوات والتزامهم بها في الجماعات ، وضرب أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد مكاناً للصلاة لكثرة المصلين^(٢) .

وتتجلي مظاهر تدينهم كذلك في عنايتهم بحفظ القرآن الكريم ، فهم يقيدون أولادهم إذا ظهر منهم التقصير في حفظه فلا ترفع هذه القيود عنهم حتى يحفظوه^(٣)

(١) هو أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة : وصل بلاد مالي في أعوام (٧٥٣) ٧٥٤هـ / ١٣٥١-١٣٥٣م) . في عهد مانسا سليمان .

(٢) ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجاده فيسقطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ، أنظر رحلة ابن بطوطة ، مصدر سابق ، ص ٦٧٢ .

(٣) وقد دخل ابن بطوطة يوم العيد وأولاده مقيدون فقبل له : ألا تسرحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ، وكذلك مر بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيد ثقيل فقال لمن معه : ما فعل هذا ، أقتل ؟ فقهم الشاب وضحك وقال لابن بطوطة : إنما قيد حتى يحفظ القرآن ، أنظر رحلة ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٣ .

كما يعد العدل من عاداتهم الإيجابية ، بالإضافة إلى انتشار الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، كما إنهم موقنون من عدم التعرض لمال من يموت ببلادهم من المسلمين الوافدين إليهم ، ولو كان قناطير مقنطرة إنما كانوا يتركونه بيد ثقة من هؤلاء المسلمين الوافدين حتى يأتي ويأخذه من يستحقه^(١).

ومن عاداتهم الأيجابية أيضا حب النظافة والاعتناء بها شهد لهم بهذه الظاهرة أيضا الرحالة ابن بطوطة ، ومنها ارتداؤهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خرق غسله ونظفه وشهد به صلاة الجمعة^(٢).

أما العادات السلبية فيمكننا رصد بعض منها استنادا إلى ما ذكرته المصادر ويأتي على رأسها الاعتقاد في الأساطير والخرافات والقوى السحرية واتخاذ الطلاسم ، فقد كان من العادات المتوارثة فيما يتعلق بالمريض أنه إذا أراد أهله أن يعلموا أن كان ميسفى أو سيموت ، كانوا يكسرون البيض فوق رأس هذا المريض ، كما كانوا يقومون بنحر الذبائح تحت أقدامه . وكذلك كانوا يعتقدون في أهل السحر الذين يستعملون أسماء الله الحسنى وآياته في غير المباح للتفريق بين المرء وزوجه ، ومنهم من يزعم أنه يعرف ما إذا كرهت البهيمة أولادها و سبب ذلك ، فيأخذون من أشعار رأسه أو لحيته فيبخرونه على تلك البهيمة فيوافق مرة ومرة لا^(٣) . ومنهم من يكتب لمن أراد حاجة عند أحد مما جعل أهل السحر

(١) المصدر السابق ، ص ٦٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٧٣ .

(٣) عبد الرحمن السيوطي : الحاوي للفتاوى ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م ،

أرفع مقاما وأكثر رزقا وحكما^(١) . ومنهم من يقول ويعتقد أن بعض الناس يقتلون بعضا بمس أو مقازبة ويزعمون أنهم يمرضونهم ، وإذا أعطوهم ما أرادوه داووهم ومنعوا عنهم أذاهم^(٢) ومنهم من يمشی بين العوام ويناچی كل من يلقاه : ألا أريك رقية العين من أجل المحبة والنكاح ودخلة القلوب والقبول عند السلاطين ، وأمثال ذلك من أمور السحر والشعوذة^(٣) .

كما ظهر بينهم أيضاً من يدعى أنه يعلم الغيب ، باستخدام خط الرمل ونحوه^(٤) ، ومنهم من يترصد مواقع النجوم ويترجم وضعها في ذلك المكان إلى حوادث معينة ستحدث ، والبعض الآخر يترجم أصوات الطيور إلى أشياء معينة^(٥) .

(١) منهم من إذا سرق ماله أخذ المتهمين فيوقد ناراً ويقيد المتهمين بشي قصير ويأمرهم بالمشي عليه فيمرون فالذي يسرق تارة تحرقه النار، والذي لا يسرق لا تحرقه ولا تمسه ، ومنهم من يأخذ المتهم ، ويأخذ المرأة ويعلقها على خيط ويأخذ الخيط ويبدل المرأة ويجعل الخطين في الأرض ويجعل الرماد على خط واحد من الأرض ويترك الآخر ويدليها على وسط الخطين ويقرأون سورة يس على ذلك فإن تحركت المرأة وجرت على طريق الرماد ثبتت الحرقه عليه وإلا فلا أنظر : السيوطي مصدر سابق، ص٣٤١، الهادي مبروك الدالي : مرجع سابق ، ص٤٤ .

(٢) السيوطي : مصدر سابق ، ص٣٤١ .، ويروي السعدي : أن أحد المشعوذين أحضر خايبه مملوءة بالماء وقرأ عليها ونادي باسم فأجاب وقال له أخرج إلى فخرج شخص من الماء بقدره الله على شكل الرجل الذي يريد الانتقام منة وجعل الحديد في رجليه ، وطعنه بالحربة ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص٩٩ .

(٣) السيوطي : المصدر السابق ، ص٣٤٣ .

(٤) يستخدم خط الرمل لمعرفة الحاضر أو المستقبل ، وله ست عشرة حالة ، وأسماء وبعضها يرمز للخير والبعض الآخر للشر ، ومن يريد استعماله يأتي بتراب نظيف ، ويسطه على الأرض ، ثم يتقط فيه بالأصابع الوسطى أربعة أسطر . من غير عدد بالحذف زوجاً فزوجاً إلى أن يتتهي إلى الآخر ، وإذا كان زوجاً أو فرداً أثبتته ، ثم يثبت ما تبقى من السطر الأول أولاً ، ومن السطر الثاني بعده ، إلى أن تتهي الأربعة أسطر فيتكون منها شكل عددي ، يستخلص من خلاله الحال والطلب ، التاريخ الحضاري : مرجع سابق ، ص٧٦ ، ٧٧ .

(٥) المغيلي : مصدر سابق ، ص٣٤ .

وكانت هناك حلقات تعقد في الأسواق ومحلة للعرافين والذين يستخرجون العين، وكان أكثر رواها من النساء، وعندهم طلاس للكنكاح والبيع والشراء و الرهج والحروب والمحبة ووجع الرأس والضررس ويزعمون أنهم ملوك الدنيا وأبناء الأنبياء^(١).

وقد أنكر فقهاء المالكية في تلك البلاد تلك السلوكيات وكان لهم دور تجاه هؤلاء السحرة ومن يتعاملون معهم فكانوا يحاولون إقناعهم هم ومن يتعامل معهم بالبعد عن السحر . فإذا فشلت محاولاتهم هذه لجأوا إلى الأحكام لتحريضهم على هؤلاء السحرة ويطالبون السلاطين بقتل هؤلاء السحرة^(٢) نظرا لخطورتهم ونفوذهم وهيبتهم الكبيرة لدى الأهالي.

كما كانت هناك ممارسات وثنية تؤدي مع العبادات الشرعية بل اختلطت بها، واعتقد العامة أنها جزء منها ، ومن ذلك أنهم قوم يشهدون أن لا اله إلا الله محمد رسول الله ﷺ وعادة بعضهم بناء المساجد وتلاوة القرآن والعلوم والمدائح والحج ومع ذلك كان بعضهم يعتقدون أن هناك من ينفعهم ويضرهم غير الله عز وجل ، حيث كان لهم أصنام يتقربون إليها لها ويذبحون ، وبعضهم الآخر يعظمون الأشجار ويذبحون عندها الذبائح^(٣) . والراجح ان فقهاء المالكية استغلوا مجالس الوعظ في محاربة هذه السلوكيات الوثنية بالإضافة إلى الخطب الدينية كخطبة الجمعة ، كما وأجّة فقهاء المالكية في مجالس الوعظ والخطابة بعض السلوكيات المخالفة للشرع مثل أناس كانوا يؤدون صلاتهم بالتميم فلا يتوضأ أحدهم إلا نادرا، وكانوا

SUPERNATURAL IN THE AFRICAN EPIC, A Dissertation
Submitted to The Temple University, Graduate Board, ٢٠٠٤, pp9٩/١٠٠

(١) السيوطي: الحاوي للفتاوى ، ص ٣٣٩.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥، ص ٢٩١.

(٣) المغيلي : أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلي ، مصدر سابق ، ص ٣٥.

أيضاً لا يغتسلون من الجنابة إلا نادراً، ولا تصوم نساؤهم ولا تصلي إحداهن إلا إذا كبرت ، ويدخلن المساجد ومع كل واحدة منهن عصا^(١).

كما واجه فقهاء المالكية حالات الغش في الأسواق ، فقد كان بعضهم يقوم بخلط اللبن بالماء ، ويبيع اللحم مع الشحم ، ومنهم من يقوم بنفخ اللحم^(٢) ، ومنهم من إذا اشترى سلعة حازها وذهب بها قبل أن يدفع لصاحبها ثمنها ، فإذا ندم أو لم يبيعها بربح وطلب منه صاحبها ثمنها قال له : خذ سلعتك أو اصبر حتى نبيعها^(٣). ومنهم من يطفف المكيال والميزان بالزيادة والتقصان ، ومنهم من يغش الذهب والفضة بالنحاس ، أو يأبى أن يتزف التبر من التراب^(٤).

كما انتشرت بينهم النميمة والتجسس والبخل والجبن والقسوة والظلم والفساد وقطع صلة الرحم وشهادة الزور والحلف بالأبواء والأمهات والتكبر وأكل الحرام^(٥) ، ويذكر ابن بطوطة ، أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير^(٦).

ومن العادات التي استقبحها الرحالة لبعض أهالي البلاد عادة عدم احتشام بعض النساء من الرجال ، وكذلك عدم احتجاب المرأة عن أخي زوجها وابن عمه أو صاحبه مع مواظبتهم على الصلاة ، كما كان لدين الأصدقاء والأصحاب من

(١) السيوطي : المصدر السابق ، ص ٣٣٨.

(٢) المغيل : مصدر سابق ، ص ٦٣.

(٣) السيوطي : مصدر سابق ، ص ٣٣٩ ، المغيل : مصدر سابق ، ص ٦٣.

(٤) وهذا معروف من أيام غانا في القرن الحادي عشر حيث توافرت في كتب الرحالة العرب ، على أن الملوك في السودان الغربي ، كانوا يصطفون لأنفسهم السباك الذهبية ، ولا يتركون للناس إلا تراب الذهب (التبر) للتعامل ، وهم يفعلون ذلك لكي تبقى للذهب أهميته "

(٥) السيوطي : الحاوي للفتاوى ، مصدر سابق ، ص ٣٣٨.

(٦) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٢.

الرجال الأجانب ، ويدخل الرجل داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك ، كما كان للرجال صواحب من النساء الأجنبية^(١).

وكذلك أنكر الرحالة عادة العري وكشف عورات النساء الخرائر والإماء وإن كانت بنت القاضي ، وتلك عادة كانت مشهورة ومطردة بينهم^(٢).

وهنا أفتى الفقهاء للأسكيا محمد بما يقتضيه الشرع تجاه عادة العري والاختلاط، وبالفعل كان الأسكيا الحاج محمد أول حاكم سوداني غربي يرغب المرأة على اتباع قواعد السلوك والآداب الإسلامية الحميدة في الزي ، وفي عدم الاختلاط بالرجال إلا في حدود الشرع، ويبلغ في صرامة مراقبة سلوك الرعايا لضمان الالتزام الإسلامي أن رجال الشرطة في عهده ، كانوا لا يترددون في إلقاء القبض على أي رجل يشاهد في صحبة امرأة أجنبية عنه أو في حديث معها ، ثم يوضع في السجن^(٣) وهكذا أعان فقهاء المالكية الاسكيا محمد في مواجهة عادة الاختلاط وشددوا علي تحريم هذا الأمر ونفذ الأسكيا فتواهم .

(١) المصدر السابق والصفحة .

(٢) وكذلك هناك عادة عري النساء وهذا ما شاهده ابن بطوطة فقال: "ومن مساوى أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة ، فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جوارسهم ، وهن عرايا . ويذكر كذلك دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات ، وكذلك تعري بناته ، وقد شاهد خروج نحو مائة جارية يحملن الطعام إلي قصره عرايا في ليلة السابع والعشرين ومعهن بتان لمن ناهدان ليس عليهما ستر، وكانت عادة كشف عورات الخرائر والإماء متفشية بينهم حتى كانت البنت في جني لأتستر شيئا من عورتها مادامت بكرًا ولو بلغت خمسين سنة وكانت شابة من أجل النساء تخرج بين الناس عريانة بلا ستر أصلا ، وهي بين أبيها وإخوانها كذلك ، حتى تتزوج ، ولو كانت بنت السلطان أو القاضي ، أنظر : ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ٦٧٣ ، عبد القادر زيادية : أسئلة الاسكيا ، ص ٦٣ ، السيوطي : الحاوي ، ص ٣٣٩ .

(٣) جوزيف كيزريو: تاريخ أفريقيا السوداء ، باريس ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٥ .

كما كان عند الملوك عادة وطء الحسان بدون زواج. وهذا ما ذكره العمري^(١) فقال: "وذكر لي عنه ابن أمير حاجب أنه حكى أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء قدمها له موطوءة فيملكها بغير زواج، مثل ملك اليمن، فقلت لمنسا موسى: "إن هذا لا يحل لمسلم شرعا" فقال: "ولا للملوك؟" فقلت ولا للملوك وأسأل العلماء فقال منسا موسى: "والله ما كنت أعلم ذلك وقد تركته من الآن"^(٢).

كما كانوا يتناكحون بغير صداق، ومنهم من حرفته أن يتزوج النساء الكثيرات الأموال ويعيش علي رزقهن^(٣)، وكان أولياء الأمور لا يزوجون بناتهم إلا لصاحب مال ونسب، ولا يزوجون الفقير ولو كان عالما صالحا تقيا^(٤).

وهنا جاء دور الفقهاء المصلحين الذين قاموا بما يشبه ثورة التصحيح لتصحيح الشريعة الإسلامية بعد عهد سني على الذي أحدث انتكاسة للشريعة الإسلامية الصحيحة بعد عهد دولة مالي، فظهرت صور كثيرة للفساد الاجتماعي والديني طوال عهده وحتى بعد وفاته عام (٨٥٥هـ/١٤٥١م)، فبذل هؤلاء الفقهاء جهدا كبيرا لإصلاح هذه العادات وفق الشريعة الإسلامية ولو أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها جميعها^(٥).

ومن العادات السلبية الأخرى التي انتشرت في المجتمع بين أهل مالي وُصنفي العادات الخاصة بالميراث فهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة، وإنما كان

(١) هو ابن فضل الله، المتوفى عام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. مسالك الإبرار في ممالك الأمصار، ج٤، ١١٩، ١٢٠.

(٢) القلقشندي: مصدر سابق، ص ٢٩٦.

(٣) عبد الرحمن السيوطي: مصدر سابق، ص ٣٣٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٥) المغيل: مصدر سابق، ص ٢٤٢.

يأخذ مال الميت ابن أخته، وكانوا على هذه الحالة منذ القدم^(١) وفيهم كذلك من يقر الميراث كما فرضه الله تعالى ، ولكن إذا كان في الورثة كبير استولى على جميع التركة ، ويدعى بأنه في منزلة أبيهم ، ويقوم بإعطاء الزوجة نصيبها ويستولى هو على المتبقي ، من غير إتياء ولا تقديم ولا رضى أحد منهم ولا يتعرض له أحد في ذلك مدة حياته ، حتى إذا مات استولى على تركته الأقوى أيضا ، وبعضهم لا يورث الزوجة ولا غيرها من النساء^(٢).

وكذلك من عاداتهم السلبية أن منهم من كان يقوم باسترقاق الأحرار ويدعوهم بالعبيد، فإن مات من ادعى عليه ذلك لم يقسموا ماله بين ورثته لانهم رقيق في نظرهم وإن قلت لهم هؤلاء أحرار كادوا يقتلونك ويقولون: هؤلاء عبيد أتباع للسيف ، ومنهم من يسخر منهم ويأخذ منهم الأموال ولا يضرهم في أنفسهم ، ومنهم من يبيعهم بالتنافس والتنازع^(٣) . وهنا أتى دور الفقهاء الذين استشارهم الأسكيا الحاج محمد الكبير وأخذ برأيهم في عادة الاسترقاق وتخطيمها بصفة رسمية^(٤).

(١) السيوطي : المصدر السابق ، ص ٣٣٧ .

(٢) "وهنا يقرر الباحثون أن البشرية كانت في أطوار سابقة تعتبر قضايا الإرث والاستخلاف مرتبطة بالأم ، لان إلام هي ربة المنزل ، وهي التي يعود إليها جميع الأفراد في العائلة ، وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بأطوار لم ينتظم فيها الزواج ، فقد يكون للأم عدد من الأزواج في آن واحد ، وفي مثل هذه الحالة ، فإن الأم وحدها هي التي تمثل الأصالة في انحدر جميع أفراد العائلة من نسلها " .

(٣) السيوطي : مصدر سابق ، ص ٣٣٧ .

(٤) فاي منصور على : أسكيا الحاج محمد وإحياء دوله السنغهاي الاسلامية (١٥٢٩-١٤٩٣م) منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، الجماهيرية - عظمى ، طرابلس ، ص ٦٤ .

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٤ .

ومن العادات السلبية التي اتسم بها القصر الملكي في جاو أثناء مجلس يوم الجمعة ما حدث من الاسكيا داوود ١٥٤٩-١٥٨٢م. الذي كان يجلس وحوله عبيده الخصيان يقفون على رأسه وهم نحو سبعمائة وعلى كل واحد لباس حرير فإذا أراد الاسكيا أن ييصق أو يتفل أسرع إليه بعض الخصيان وبسط له كفه فيصق الاسكيا فيه ثم يمسح فاه من النخام^(١) ، وكان أن شاهد هذا الفعل الفقيه أحمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر بن عمر أثناء وجوده في العاصمة فتكلم مع الأسكيا داوود وانتقده ورفض هذا التصرف^(٢).

رابعاً : فقهاء المالكية والاحتفالات الدينية :

احتفل أهالي مالي وُصنفي بالمناسبات العامة كالأعياد الدينية وشاركهم فقهاء المالكية هذه الاحتفالات ومنها الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج فكان الأهالي يحيى هذه الليلة ، ويصوم معظمهم اليوم السابق لها ، ويقوم فقهاء المالكية بقراءة القرآن الكريم والمدائح النبوية ، كما كانوا يقومون بشرح أهمية هذه الذكرى ، وموقف أبو بكر الصديق والصحابة منها ، وكذلك موقف المرتدين والمشركين من رسول الله ﷺ ، ويكون ذلك في المساجد والأماكن المختارة لهذه المناسبات^(٣).

كما شارك فقهاء المالكية في الاحتفال بالمولد النبوي ، وكان هناك حرص على الاحتفال بهذا اليوم في مالي وُصنفي وهو في شهر ربيع الأول من كل عام. ويلقى هذا الاحتفال مزيداً من الاهتمام والتبجيل تقديراً وتبركاً بذكرى سيد الأنام محمد بن عبد الله ﷺ حيث يقوم فقهاء المالكية في هذا الاحتفال بإلقاء دروس الوعظ والإرشاد ، وكذلك الدروس الدينية حول سيرة خير البرية ﷺ في المساجد والجوامع ، كما تنشد

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١ ، الفشتالي : مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفا مصدر سابق ، ص ٢٦٤ .

المدائح النبوية بأبيات عربية في ساحات المساجد حتى الثالث الأخير من الليل^(١) وكان الفقيه أبو حفص عمر بن الحاج أحمد يداوم في هذا اليوم على مدح رسول الله ﷺ في الصباح وفي المساء ، كما كان الأهالي يحرصون على تقديم الطعام للمداحين لشدة محبتهم لمدح النبي ﷺ^(٢) . وفي يوم العقيقة وهو اليوم الثامن عشر من شهر ربيع الأول يتوجه كافة الناس وعامتهم إلى جامع سنكري لمشاركة فقهاء المالكية في دعاء ختم القرآن الذي يختتم إحياء لذكرى مولد النبي الشريف ﷺ^(٣) .

كما كان لفقهاء المالكية دور مهم في استعداد مسلمي تلك البلاد لاستقبال شهر رمضان تطبيقاً لتعاليم السنة النبوية الكريمة ، فكانوا يحثون الناس على أن يكثرُوا من العبادة وفعل الخير و التردد على المساجد في أوقاتها ، بالإضافة إلى حثهم على قراءة القرآن الكريم . كما كانوا يقومون بسرود أو تدريس كتاب الشفا لعياض في مسجد سنكري في كل يوم من أيام شهر رمضان وفي المدن الكبرى مثل تنبكت وجني وجاو^(٤) .

وعندما يقبل شهر رمضان فإن الأهالي يستعدون له بشتى أصناف الأطعمة والخلوى، وفي ليلة القدر يسهر الأهالي في هذه الليلة العظيمة وهي ليلة السابع

(١) محمود كعت : مصدر السابق ، ص ٦٠ ، مجهول : تذكرة ، ص ٢٠ .

(٢) MBOUW Panda : Les péripéties du voyage de Tombouctou , p : ٣٤١ , la culture Arabo international tenu a Tombouctou en Août ١٩٩٥ , Publication de la foundation ta mimi Zaghoun , Tunisie ١٩٩٧

الإمام أبا القاسم التواتي إمام الجامع الكبير ، أنظر السعدي ، مصدر سابق ، ص ٥٩ .

(٣) مجهول : تذكرة النسيان ، ص ١٥٧ .

(٤) مثلها كان يفعل الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت ، وكذلك أبو حفص - برأبن الحاج أحمد ، والفقيه محمد الأمين بن القاضي سيد أحمد الذي كان يدرس كتاب الشفا للقاضي عياض لمدة ثلاث سنوات في رمضان ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٣٣ ، ٣٨ ، مجهول : تذكرة ، مصدر سابق

والعشرين من شهر رمضان المبارك وذلك بالعبادة والذكر والإرشاد في المساجد حتى الفجر^(١)، أما الاعتكاف في العشر الأواخر من شهر رمضان فكان يوجد بكل مسجد^(٢)، وأيضاً تقام في بيوت الأغنياء احتفالات كبيرة طوال شهر رمضان يتم فيها قراءة القرآن الكريم، وشرح السيرة النبوية، وسير الصالحين، كما تقام مواعظ الطعام والشرب تمجيدياً لهذا الشهر الكريم.

وعندما يأتي موعد الاحتفال بعيد الفطر والذي يسمى في مالي وُصْنغِي (فيرمي جينغر) ويعني عيد تسريح الفم للأكل والشرب، وهو عيد يحتّم به شهر رمضان المبارك فكان الاحتفال يبدأ منذ الليلة السابقة له حيث تتم مراقبة الهلال، وبمجرد التأكد من رؤيته يقصد العدول من الرجال دار القاضي أو السلطان للإدلاء بشهادة رؤية الهلال، ويبدأ في اليوم الأول من شهر شوال ويستمر عندهم على مدار ثلاثة أيام تسودها مظاهر الاحتفال الديني فقي دولتي مالي وُصْنغِي كان الفقهاء والأهالي يخرجون إلى المصلى مرتدين الملابس البيضاء، ويتظنون السلطان الذي يأتي إليهم واضعاً طيلساناً على رأسه، لا يلبسه إلا في الأعياد مشاركاً في ذلك فقهاء المالكية، الذين يلبسونه طيلة العام. وكان من عادات الأهالي أنهم عندما يمثلون بين يدي السلطان يتعالى تكبيرهم وتهليلهم وبأيديهم الأعلام الحمراء المصنوعة من الحرير، وبعد الانتهاء من الخطبة ينزل الخطيب من على المنبر، ويجلس بين يدي السلطان ويبدأ بذكر مآثره الحسنة، وكذلك يدعو إلى طاعة السلطان، وكان المترجم الذي يعرف (بالدوغا) يترجم للناس مقالة هذا الخطيب^(٣).

وكان الاحتفال بعيد الأضحى من أهم الاحتفالات الدينية التي حرص عليها فقهاء المالكية ويسمى في مالي وُصْنغِي " كيبسي " وهو تحريف للكلمة العربية

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٨٠ ، مجهول : مصدر سابق ، ص ٨٤ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٨٠ ، مجهول : مصدر سابق ، ص ٨٤ .

(٣) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

الكبش أي عيد الكبش ، الذي يأتي في العاشر من شهر ذي الحجة . ويسبق الاحتفال صيام يوم عرفة وكما هو معروف فهو يوم وقوف الحجاج بجبل عرفة، ومن أجل مشاركة هؤلاء الحجيج في موقفهم يصوم المسلمون هذا اليوم باعتباره يوماً عظيماً ومقدساً في حياة الأمة الإسلامية ، ويقوم فقهاء المالكية في هذه الأيام بواجبهم الديني ، كما يقرأون القرآن الكريم والمدائح النبوية في المساجد والأماكن المختارة لهذه المناسبات^(١) .

وكان الاحتفال بيوم عاشوراء يسمى (ديدو) وهو في اليوم العاشر من شهر المحرم ، وهو عيد يحظى باهتمام بالغ لدى مجتمعي مالي وُصنغى، حيث إنهم يعتبرونه يوماً لتطهير النفوس وتهذيبها لسنة جديدة فكانوا يتزاورون فيما بينهم طالبين العفو والساحة ، ويقولون في هذا اليوم (يسي غوما) ، بمعنى : أرنا الله السنة القادمة بالسعادة والازدهار ويشارك فقهاء المالكية في هذا الاحتفال بأن ينظموا حلقات الذكر والوعظ والإرشاد في مختلف أرجاء المدن ، إضافة إلى تلاوة القرآن وختمه ، وقراءة كتاب دلائل الخيرات بالجوامع ، وفي بيوت بعض العائلات الموسرة^(٢) .

ويعكس لنا هذا الأمر مدى تأثير فقهاء المالكية في مجتمع مالي وُصنغى وحرصهم على استغلال المناسبات الدينية الإسلامية ودفعهم إلى اتخاذ مستهل السنة القمرية رمزاً لطلب العفو وتحقيق وتعميق أواصر القربى وتوثيق صلوات الرحم وتوطيد العلاقة الأخوية الدائمة والمستمرة بين أبناء العائلات في هذا المجتمع .

كما كانت هناك احتفالات موسمية أخرى كالاحتفال بخروج وعودة موكب الحجاج وكان لهذا الاحتفال أثر كبير في نفوس الحكام والفقهاء وامة الشعب لما فيه

(١) كعت: المصدر السابق ، ص ١١ ، الفشتالي : مناهل الصفا في أخبار موالينا ا شرفا ، مصدر سابق ،

من إجلال وقداسة لديهم ، فإذا جاء مرعد الرحيل للرحلة المقدسة وكان في هذه الرحلة الملوك أو السلاطين يخرج في وداعهم كبار رجال دولتهم وعامة الشعب والجيش^(١).

وكان لفقهاء المالكية حضور كبير في هذه الرحلة مما أضفى عليها السكينة والوقار، خاصة لوجود القاضي الذي له أهمية كبرى في هذه الرحلة لما قد يتعرضون له من نوازل وأحداث أثناء السير إلى الحج فكانوا يقومون له بالفصل فيها ، وكذلك الفصل بين الأفراد فيما يحدث بينهم أثناء المسير^(٢). كما كان للفقهاء دور كبير في مساعدة غيرهم من غير القادرين على الحج وحملهم معهم لأداء هذه الفريضة . وبعد أداء الرحلة المقدسة وهم في طريق عودتهم اعتاد هؤلاء الحجاج أن ينزلوا خارج البلد ولا يدخلوا إلا بعد استئذان الأسكيا الذي كان يخرج لملاقاتهم ويقدم لهم الهدايا ويقبل أيديهم إجلالاً لهم ، وتقام الاحتفالات وتقرأ القصائد في التهته والرجوع من الحج التماساً للبركات من الحجاج^(٣).

هذا وقد لعب فقهاء المالكية أيضاً دوراً كبيراً كذلك في المآتم والأحزان التي كانت تقام في مالي وصنغاي ، حيث كانوا يتقدمون المواكب في الجنائز التي كان يمشى فيها الناس بكل خشوع وأدب ، وكانت كثرة المشيعين أو قلتهم تتوقف على المركز الاجتماعي للميت ، وكانت الولايم تعد في منزل أسرة الميت ويحضرها فقهاء المالكية وطلاب القرآن الكريم ، حيث يقرأون القرآن إلى وقت متأخر من الليل ، وذلك لليال متوالية ، ثم يتم توزيع الهبات عليهم من قبل أسرة الميت وتتضمن هذه الهبات ملابس وحبوباً وأموالاً نقدية في بعض الأحيان^(٤).

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٢٣٣ .

(٢) السيوطي : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ١٥٨ .

(٣) محمود كمت : مصدر سابق ، ص ١١٢ ، ١١١ .

(٤) عبد القادر زيادية ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

وهكذا كان لفقهاء المالكية دور كبير في الحياة الاجتماعية لدى مجتمع السودان الغربي كله، مما مهد الطريق لهؤلاء الفقهاء لأخذ مكانة كبرى أخرى في الحياة الثقافية لدى سكان تلك البلاد.

obeyikandali.com